سيميائيات الفن

بوريس، إيه، أوسبنسكي

تر. عبد النبي اصطيف*

1- يمكن النظر إلى العمل الفني على أنه نص مؤلف من رموز لكل منها مضمونه الخاص به؛ والفن، في هذا الوجه، مشابه للتنجيم والنبوءة الدينية. وهناك شروط اجتماعية تتعلق باستبدال المضمون في الفن، أقل من تلك التي في اللغة اليومية؛ وعلى وجه العموم يشكل التكافؤ المتعدد الدلالة Polysemantic valence، أو إمكانية تفسيرات عديدة من حيث المبدأ، وجهاً مهماً من وجوه العمل الفني.

ويمكن فهم المعنى على أنه سلسلة من الارتباطات والأفكار المتصلة برمز، ويُعرَّف بشكل عام بأنه اللامتغير invariant في عمليات الترجمة القابلة للعكس. (س. شانون C. Shannon). إن الرموز الفنية تترجم إلى عدد من الارتباطات والأفكار المجردة في أي مثال محدد. وهذه الترجمة بيّنة على نحو خاص في البث السكوني Static للحركة، بتثبيت الأطوار المتتالية المنفصلة لموضوع متحرك والتي يترجمها تحديق الناظر إلى حركة كما يحدث في الصور، واللوحات المستقبلية Futurist، وفي رأي ليسّنغ في اللاووكون Laocoon؛ إن اللامتغير هنا هو المفهوم المجرد للحركة. وانظر أيضاً ترجمة الأصوات إلى حركة مُبينة في حالات معينة من أسماء الأفعال والأصوات حيث اللامتغير هو الإحساس المتماثل مع إفصاح محدد. وحيث يحقق الفن هدفه، فإن هذه العملية قابلة للعكس بمعنى أن الناظر يربط بشكل طبيعي بين فكرة معينة وصورة معينة، وبالتالي فإنه يحقق انتقال الرموز الفنية من مستوى التعبير إلى مستوى المضمون.

ويميل العلم عادة إلى خلق لغة عن اللغة، أو ميتالغة metalanguage، تحتوي لغةً أو نظرية معينة وتشرحها؛ إن العلم يتخذ من نظرية معينة موضوعاً لنظرية جديدة أكثر عمومية ويمضي قُدُماً في وجهة النظر الأوسع هذه. ومهمة الفن هي العكس تماماً، لأنه يستخدم الميتالغة ليجعل من أفكارنا العادية أكثر ضيقاً وأكثر كتابية. إن الفن يتفحص على نحو جديد الظاهرة التي من أجلها وُجدت المصطلحات وشكلت الأعراف فعلاً، كما في مفهوم إزالة الألفة defamiliarization في كتابات الشكليين الروس.

---

* - باحث وأكاديمي سوري

إن سيميائيات الفن تتحدد بغرض مركزي هو البحث عن مضمون في العمل الفني. وغياب مهمة مثل هذه يميز الظواهر الطبيعية من الأعمال الفنية. إن التدقيق غير المتحيز قد لا يجد الظواهر الطبيعية أقل شأناً من الأعمال الفنية ولكن حقيقة أن هذه الظواهر طبيعية ولا تقتضي تفسيراً للمضمون يحول بيننا وبين رؤيتها على أنها ظواهر جمالية. وعلى أي حال فإن هذه الظواهر يمكن أن تتلقى معنى مفهومياً من رؤية دينية للعالم، وأحادية النظرة الأيديولوجية يمكن حتى أن تغري المرء، في حالة كالحديث في اللغات، أن يدرك التراكيب الماوراء حسية trans-sense للأصوات على أنها لغة.

2- إن تطور الفن مشابة بشكل عام لتطور اللغة. ومن منظور تطوري، يمكن تصور الفن، شأنه في ذلك شأن اللغة، على أنه نظام يجاهد باستمرار نحو الاستقرار. وفي أية لحظة، يتميز الفن واللغة بالميل إلى التوافق مع المعيار مثلما يتميزان بالانحرافات عن المعيار. وعندما تغدو هذه الانحرافات متكررة تشكل بدورها معياراً كما يحدث في الأنظمة ذاتية- التوليد. ويُحدَّد المعيار بقابلية التنبؤ بظاهرة ما على أساس من الظواهر السابقة، أو من معلومات تُلُقّيت من قبل. والمعيار يشير إلى صلات تحققت فعلاً بين العلامة والمضمون، مثل المطر على النافذة بوصفه رمزاً لمزاج البطل السوداوي. وكذلك فإنه يمكن أن يعلن عن حدود مفروضة على التعبير مثل الوزن في الشعر، أو حدوداً على المضمون مثل التوجه الأخلاقي للمجتمع والفترة اللذين يمتّ العمل الفني إليهما بصلة. والفن تشكله الانحرافات الجزئية عن المعايير القائمة التي لا تكون قابلة للتنبؤ على نحو كبير وتنقل معلومات جمالية. والعلامة لا تكون علامة جمالية إلا من خلال العلاقة بمعيار. والعلامة الجمالية تشير إلى دلالة أكثر من إشارتها إلى شيء مدلول عليه، وهكذا فإن الرمز الفني هو علامة لعلامة لعلامة.

إن النص الفني الفعلي ماهو إلا سلسلة من العلامات الجمالية والعادية، وصلته بالمعيار تمكن دراستها بالتفسير العلمي لمفهوم العرفية conventionality. إن كل عمل فني هو عرفي[2] ، لأنه يفترض دائماً معياراً ما على أنه الأرضية التي يتم تصوره مقابلها. وغياب المعيار يعادل افتقاراً لحدود على التأليفات الممكنة لعناصر التعبير والمضمون؛ وهذه شكلانية صرف لا تستطيع أن تملك أي مضمون[3] . وليس من المشروع السؤال عن حقيقة هذه الحدود وصحتها، لأن سؤالاً كهذا يتجاوز حدود نظرية الفن. وعندما يصل جمهورٌ ما مسرحاً ما، فإنه يعطى عادة بعض الحدود المعيارية أو المبادئ الأخلاقية بالإضافة إلى حدود المكان والزمان والعمل. وربما لا يوافق الجمهور على هذا التوجه في الحياة بوصفها متميزة عن الفن، ولكنه قادر على تلقي متعة جمالية لأنه يقبل هذه المبادئ المعيارية نقطة للانطلاق.

إن بيانات الفلاسفة هي مثال للمعيار الصرف، ولكنها لهذا السبب لا تستطيع نقل معلومات جمالية. ويمكن تصور الصلات بين المعيار والانحرافات عن المعيار في الفن على أنها صلات تركيبية مشابهة لصلة اللغة بالكلام. فالفن ليس نظاماً دون إعادة إنشاء لمعياره، مثلما أن الكلام ليس نظاماً دون إعادة إنشاء للغة. وهذه الصلات بين المعيار وانحرافاته تصف الفن في وجهه الآني Synchronic مثلما تصفه في وجهه التطوري diachronic. ولأي نظام سيميائي نام معيار، ولذا فإن المعيار مقولة سيميائية.

3- إن التاريخ الطوري ontogenesis للفن مماثل للتوالد الذاتي autogenesis للغة. فالمشابهة الصوتية تُجبر الشاعر على البحث عن صلات دلالية بين الكلمات، وهكذا تُولّد الصوتيات الفكر؛ وتجري عملية مشابهة في أشكال أخرى من الفن. وعلى نحو مماثل، فإن مجموعة من الأصوات تنطق في كلام طفل، وينتقى عندئذ وضع يلائمها. وانظر من أجل أمثلة أخرى (بحث) ن. س، غوميليف N. S. Gumilev " الآلة الشعرية "، وتأليفات الكلمات المدرسية التجريبية للحصول على معان جديدة، والتفسير التلمودي للتوراة.

4- يستطيع الفن أن يكوّن موضوع البحث السيميائي في عمليته ونتيجته معاً. فمجموعة من العلامات تلهم الفنان المضمون وينظم هو هذا المضمون جزئياً تبعاً للقواعد الشكلية للمعيار والانحرافات عن المعيار. وبهذه الطريقة يتم الحصول على سلسلة من الرموز يدمجها الجمهور بمضمونها الخاص الذي يتوافق جزئياً فقط مع المضمون الذي فكر به الفنان أو جمهور آخر. وهذا البث للعملية الإبداعية من الفنان إلى الجمهور قَسَمَة مميزة للفن.

ملاحظة: ظهرت مقالة أوسبنسكي أصلاً في " ندوة عن الدراسة البنيوية لأنظمة العلامات: أطروحات التقارير "، موسكو، 1962، (ص ص 125- 128).

سيميائيات

العدد : 01
خريف: 2005 م

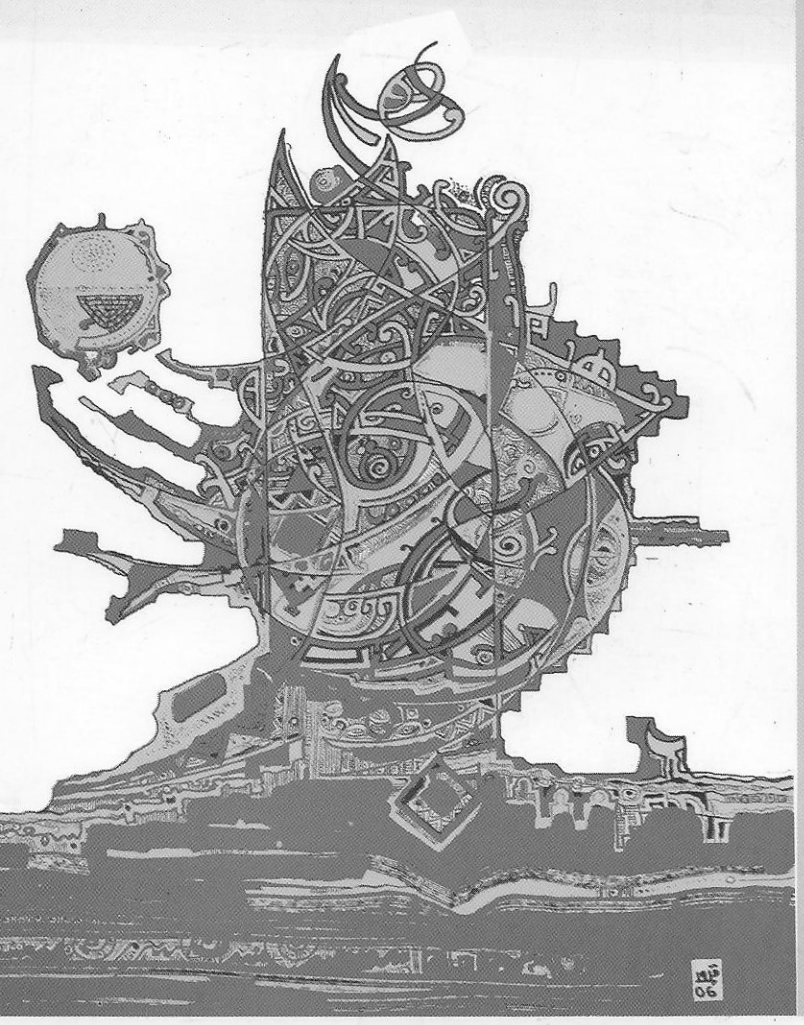

- سيميوطيقا النص الفلسفي
- السيميائيات الكانطية
- المنطق والمحادثة
- العلامة والسيرورة الدلالية
- السيميائيات وآفاقها الواصفة
- السيميائيات القانونية
- سيميائيات الفن
- الأيقونة الخطية
- بصريات الفضاء الشعري
- قيم التجاوز وشعرية الانتهاك
- الرواية العربية: السرد والدلالة

مجلة دورية محكمة تصدر عن مختبر السيميائيات وتحليل الخطابات
جامعة وهران - الجزائر-